جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية بمنطقة زيان خلال فترة الحماية الفرنسية

١٩١٢ - ١٩٥٦

د. إدريس أقبوش

دكتوراه في التاريخ المعاصر

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة ابن طفيل - المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة الدكتوراه ضمن تكوين "التاريخ والمجتمع في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط" بكية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل القنيطرة (المغرب). نوقشت يوم ٢٣ مارس ٢٠١٧.

الباحث:	إدريس أقبوش
إشراف:	الدكتور بوجمعة رويان - الدكتور محمد الغرايب.
التخصص:	التاريخ المعاصر
عدد الصفحات:	٣٥٥ صفحة.
لجنة المناقشة:	د. عبد العزيز بلفايدة: جامعة ابن طفيل القنيطرة. د. محمد الغرايب: جامعة ابن طفيل القنيطرة. د: بوجمعة رويان: جامعة ابن طفيل القنيطرة. دة: نوال متزكي: جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء. د: مولود عشاق: المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين القنيطرة.

يدور موضوع البحث حول "جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية بمنطقة زيان خلال فترة الحماية ١٩١٢-١٩٥٦". فالموضوع يندرج ضمن الأبحاث التاريخية التي استهدفت الهامش في إطار تعزيز البحث المونوغرافي الذي بدأ مع المختار السوسي وعبد الرحمان المودن وأحمد توفيق ومحمد مزين...إذ بدون مفهوم المبحثة كما يقول العروي لا يستقيم لا علميًا ولا منطقيًا كتابة التاريخ الشمولي. وانطلاقًا من هذه الرؤية المونوغرافية تم اختيار منطقة زيان مجالا للبحث، في إطار يتناول تجليات الحماية الفرنسية في جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وانعكاساتها على مجال زيان. إن البحث في منطقة زيان لازال بكر في مجال البحث التاريخي بصفة عامة، والدراسات المونوغرافية على وجه الخصوص، فمن خلال بحث بيبليوغرافي لم نعثر على أي دراسة تتناول المنطقة في سياق التدبير الفرنسي الأهلي وعلاقته بالمجال القبلي، ومن ثَمَّ فهي محاولة متواضعة لسبر أغوار هذه المنطقة تحليلاً وتفكيكًا وتفسيرًا، وإسهامًا في الدراسات المونوغرافية التي تناولت مناطق مغربية أخرى في أفق تغطية كافة أجزاء التراب المغربي.

كلمات مفتاحية: البحث المونوغرافي؛ التاريخ المعاصر؛ منطقة زيان؛ الحماية الفرنسية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.401669

مُقدِّمَةُ

يدور موضوع البحث حول "جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية بمنطقة زيان خلال فترة الحماية ١٩١٢-١٩٥٦". فالموضوع يندرج ضمن الأبحاث التاريخية التي استهدفت الهامش في إطار تعزيز البحث المونوغرافي الذي بدأ مع المختار السوسي وعبد الرحمان المودن وأحمد توفيق ومحمد مزين...إذ بدون مفهوم المبحثة كما يقول العروي لا يستقيم لا علميًا ولا منطقيًا كتابة التاريخ الشمولي. وانطلاقًا من هذه الرؤية المونوغرافية تم اختيار منطقة زيان مجالا للبحث، في إطار يتناول تجليات الحماية الفرنسية في جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وانعكاساتها على مجال زيان.

ظل تاريخ زيان على غرار العديد من المناطق الهامشية غير معروف في صفوف الأكاديميين، ولقد أجمع كل من خبر مغامرة اقتحام هذا الموضوع على أن العائق الأساس الذي يحد من أفق الاجتهاد ويلطف من طموح الإسهام يكمن في ندرة وطبيعة المادة المصدرية الكفيلة بمد الباحث بالحد الأدنى اللازم لإنتاج خطاب تاريخي علمي حول الموضوع وخاصةً ما يتعلق بالأصل والتسمية، فالمتداول والمعروف من المصادر خصصت حيزًا كبيرًا للأحداث السياسية، وفي أحسن الحالات تشير هذه الكتابات عرضا وعلى شكل شذرات شاردة إلى هذا الموضوع. وإذا كانت جهود الباحثين قد ركزت على إنشاء مونوغرافيات ودراسات عن مجموعة من القبائل المغربية خلال فترة الحماية وما قبلها، فإن قبائل زيان ظلت طي النسيان رغم الدور التاريخي الذي لعبته.

يطرح الموضوع إشكالية فترة الحماية في تاريخ المنطقة (مجال زيان)، ويدعو إلى التساؤل عن كيفية الحكم عليها وعلى ما كانت تتغنى به أبواق دعايتها من أنها فرضت على المغرب لصالحه، ولإخراج أهله من طور الهمجية والجهل إلى طور الحضارة والمعرفة، مستدلين على ذلك بما وجدوا عليه الأوضاع بزيان وما قدمه لهم. وتتضمن هذه الفترة خير ما يمكن أن يفحص من القضايا لمعرفة من الذي استفاد من الاستعمار أهو المعمر أم المستعمر، ووعيًا بالإشكاليات المنهجية والمعرفية الأساسية المرتبطة بمظاهر الاستمرارية والتحول وما واكبها من ردود فعل على مستويات شتى وبأشكال مختلفة. وبناءً عليه، فإن هذا العمل يهدف إلى دراسة البنية القبلية في مجالها الطبيعي والتاريخي، وأشكال المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية السائدة فيها، وعلاقتها بالمستعمر الفرنسي وتحولاتها، من أجل الوقوف على طبيعة نظام القبيلة الزيانية في تلك الفترة، وهياكلها الإدارية، والاقتصادية، والعسكرية.

دواعي اختيار الموضوع

كان وراء اختيارنا لهذا الموضوع دوافع ذاتية وموضوعية: فبالنسبة للأولى، فهي مرتبطة بالصلة الحميمية التي ولدها الاحتكاك اليومي بواقع هذه المنطقة منذ الصبا، وكان التحدي المطروح هو البحث في ثنايا هذا المجال الذي أعتز وفخور بانتمائي له، فزيان هي مسقط رأسي عشت بين أحضان جبالها ووديانها، واستنشقت هواءها وشربت ماء عيونها لهذا لزامًا عليّ الاهتمام بها، والتنقيب في تاريخها محاولة مني المساهمة في تحقيق رصيد غني وتراكم تاريخي مهم، يسهم في تعزيز العرض المونوغرافي بالمنطقة.

أما بالنسبة للموضوعية فتتمثل في اعتقادنا أن البحث في منطقة زيان لازال بكر في مجال البحث التاريخي بصفة عامة، والدراسات المونوغرافية على وجه الخصوص، فمن خلال بحث بيبليوغرافي لم نعثر على أي دراسة تتناول المنطقة في سياق التدبير الفرنسي الأهلي وعلاقته بالمجال القبلي، ومن ثَمَّ فهي محاولة متواضعة لسبر أغوار هذه المنطقة تحليلاً وتفكيكًا وتفسيرًا، وإسهامًا في الدراسات المونوغرافية التي تناولت مناطق مغربية أخرى في أفق تغطية كافة أجزاء التراب المغربي.

تكتسي المنطقة طابعًا إشكاليًا لأنها تعبر عن وضع ملتبس، فبالنظر إلى كونها تدخل ضمن المجالات التي لعبت دورًا مهمًا في تشكيل الأحداث التاريخية البارزة على امتداد حقب التاريخ الوطني، إلا أن ورودها في الكتابات التاريخية ظل باهتًا، مما يجعل من اللازم إخضاعها للبحث والتنقيب أملاً في إضاءة تاريخها أكثر وتملكه تملكًا علميًا. الأمر الذي يعطي البحث في تفاصيل وثنايا هذه المنطقة حيزا من المشروعية رغم ما كتب حولها.

الصعوبات

إن أكثر ما يعطي البحث في أي موضوع طعمًا خاصًا، ويجعل اقتحام غماره مغامرة طريفة ممتعة، هو وجود بعض العقبات التي يسعى الباحث -وهو يشق طريقه في الدراسة والتحليل – إلى تجاوزها وإيجاد الطرق الكفيلة بتنحيتها عن طريقه، ولا شك أن ما من باحث إلا عانى وهو بصدد إنجاز بحثه من صعوبات، وكذلك كان الأمر بالنسبة لي، فقد واجهت وأنا أشتغل بهذا الموضوع، عقبات وتحديات عديدة، في مقدمتها:

- قلة الدراسات والكتابات حول المجال الزياني.
- اتساع المجال الزياني، لأن بلاد زيان عند المؤرخين والجغرافيين لا يقصد بها المناطق التابعة لنفوذ قبيلة زيان بشقيها الشمالي والجنوبي (آيت سكوكو)، بل كانت تطلق على نطاق واسع يشمل تراب إشقيرن، آيت احند وآيت إسحاق، لأن القائد الزياني موحى أوحمو الزياني كانت له صلاحيات تعيين القواد في هذه المنطقة.
- ندرة الوثائق المحلية وتحفظ كبير من طرف أصحابها على استعمالها.
- صعوبة الوصول إلى الكثير من المقالات المنشورة بالجرائد والمجلات التي كانت تصدر في عهد الحماية.

- صعوبة ترجمة بعض المتون الفرنسية.
- تحفظ المستجوبين عن طرحنا لأسئلة تخص تلك الفترة وإن في جانبها الاجتماعي، حيث وصل بالبعض إلى رفض استقبالنا، وبالبعض الآخر إلى رفض مواصلة الحديث.

الإشكالية المركزية

يتوخى هذا البحث الإجابة عن الإشكالية المركزية التالية:

هل يمكن اعتبار المستعمر الفرنسي عاملاً أساسيًا في التحولات التي عرفتها منطقة زيان خلال فترة الحماية. أم أن خصوصيات المنطقة كان لها دور كبير في هذه التحولات. وبناءً على هذه الإشكالية المحورية تم البحث في مرحلة تاريخية حاسمة تبتدئ ببداية الغزو الفرنسي لمنطقة زيان، وتنتهي بحصول المغرب على الاستقلال. ويمكن بسط الإشكالية المحورية على شكل أسئلة نجملها في الشكل التالي:

- ماهي خصوصيات منطقة زيان طبيعيًا وبشريًا؟
- ما موقع الخصوصية المحلية بالنسبة لسكان المنطقة؟
- كيف كان واقع المنطقة قبل الوجود الفرنسي، وكيف تعاملت الآلة الاستعمارية معه؟
- ما هي أهم التحولات التي مست البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في زمن الحماية الفرنسية
- هل يكفي تتبع الممارسة الفرنسية في تدبير الشأن الأهلي في المنطقة في جانب محدد للحديث عن نجاح أو فشل الاستراتيجية الفرنسية في تدبير المجال؟
- وإلى أي حد يمكن أن ينظر إلى التراث الشفاهي كشاهد يمكن أن يملأ فراغات وبياضات الوثيقة المكتوبة في التأريخ لهذا المجال.

أهمية الموضوع

انطلاقًا من هذه الأسئلة يتضح مدى أهمية الموضوع. وقد لا يختلف اثنان على أن البحث التاريخي في السنوات الأخيرة قد أخذ منحى الاهتمام بالتاريخ الجهوي نظرًا لأهميته في كتابة التاريخ المغربي العام من جهة، وباعتباره حلقة ضرورية بين التاريخ المحلي المتعلق بتاريخ قبيلة أو منطقة، والتاريخ المغربي في عمومياته من جهة أخرى. فكتابة تاريخ منطقة محددة جغرافيًا وضمن زمن محدد، تؤدي إلى إبراز الخصوصيات المحلية التي غالبًا ما تركب في شكل تخريجات عامة وتراكمية تفيد في استيعاب التاريخ العام للبلاد وتدوينه. لذا، فهذا التوجه قد يساهم في إماطة اللثام عن تاريخ المغرب العميق.

يعتبر هذا البحث محاولة متواضعة لسبر أغوار هذه المنطقة تحليلاً وتفكيكًا وتفسيرًا من جهة، وإضافة بسيطة إلى الدراسات المونوغرافية التي تناولت مناطق مغربية أخرى في أفق تغطية كافة أجزاء التراب المغربي من جهة أخرى. وانطلاقًا من كون المونوغرافية ليست شكلاً أو طريقة مبسطة ومنظمة لجمع المعلومات داخل إطار استعراضي فقط، بل هي كذلك وسيلة مركزة لتحليل معطيات تاريخية في تسلسل كرونولوجي ينحصر غالبًا في تصميم منسجم. ورغبة منا في الوصول إلى هذا الأفق، كان لابد من اعتماد مجموعة من المصادر والمراجع التي لا يستقيم مسار البحث وتطوره دون اعتمادها.

مادة البحث

وقصد الإمساك بخيوط الإشكالية المطروحة تم البحث في مظان معرفية متنوعة ومنها:

١. أرشيف المكتبة الوطنية، وخاصة فيما يتعلق بالتقارير الشهرية للحماية (les rapport mensuel du protectorat) بحيث طالعنا أزيد من ٢٠ تقريرا حول المنطقة.

٢. Archives Berbères: سلسلة مجلدات دأبت "لجنة الدراسات البربرية"، بالرباط على نشرها على عهد الحماية.

٣. هسبريس Hespéris: أسست عقب اندماج مجلة "الوثائق البربرية" ونشرة معهد الدراسات المغربية العليا سنة ١٩٢١.

٤. الأرشيف المغربي:

- استفدنا من وثائق مصلحة الشؤون الأهلية (services des affaires indigènes) وقد عملنا على تصنيفها إلى المجالات التالية:
- تقارير الكتابة العامة للحماية (secrétariat générale du protectorat)
- المحاضر والاتفاقيات المحلية.
- الخلافات والصراعات في مجال الرعي.

يتميز هذا النوع من البيبليوغرافيا بأهميته نظرًا لتخصصه في الموضوع –أي معالجته المباشرة للحياة الزيانية في مختلف جوانبها-. خاصة وأن معظمهم اشتغل في المنطقة، مما مكنهم من نقل روايات تزخر بمعلومات مهمة.

٥. الرواية الشفوية: ساهمت في تعزيز قيمة البحث واستنتاجاته، خصوصًا وأن هذه الرواية ساعدتنا في

سد الثغرات التي يطرحها غياب الوثائق والنصوص المكتوبة. بل وأصبحت، بفضل التوسع الذي لحق مفهوم الوثيقة التاريخية على يد مدرسة الحوليات والتاريخ الجديد، شواهد يمكن الانطلاق منها لإعادة رسم المعالم والمسارات التاريخية لهذه الحقبة الهامة من تاريخنا الوطني. وهكذا عملنا على ربط الاتصال بساكنة المنطقة تراوحت أعمارهم ما بين الثمانين والتسعين سنة من الرجال والنساء، وبذلك تحقق شرط الانتماء إلى فترة الحماية الفرنسية.

٦. ركزنا فيما كتبناه أيضا في هذا الموضوع على بعض الكتب المطبوعة باللغة العربية والفرنسية، ونشير إلى أن المصادر المطبوعة باللغة الفرنسية، تتكون من الاسطوغرافيا التي ألفت في عهد الحماية، تناولت مختلف جوانب المجتمع الزياني، مكنتنا من فهم مجموعة من القضايا التاريخية التي كانت مغمورة بسبب قلة المادة المصدرية المغربية، رغم ما يعتريها من نزعة استعمارية.

فرضية البحث

في سياق تناول الإشكالات السالفة، سننطلق من فرضية مفادها أن الاستعمار الفرنسي ساهم في إحداث تغيرات جذرية بالمجتمع الزياني، رغم المقاومة المستميتة للقبائل الزيانية.

الأدوات المنهجية للدراسة

لا شك أن لكل موضوع بحث منهجًا خاصًا به، تمليه طبيعة الموضوع من جهة، وتصورات الباحث عن كيفية دراسته من جهة أخرى، ولهذا اعتمدت في جمع مادة بحثي ودراستها على الآليات المنهجية المناسبة لكل مرحلة من مراحل عملي فيه، فاستندت إلى: منهج تاريخي مكنني من تحديد مشكلة البحث وتحديد البعد الزماني والمكاني له، وتفكيك محتويات البحث عبر فحص العديد من المصادر والمراجع المناسبة للبحث ونقدها داخليا وخارجيا، على اعتبار أن التاريخ ذاكرة نصنعها كمال قال **رولان بارث**، بل ونكتبه انطلاقًا من المجتمع نفسه، أي: من وثائقه وتصوراته ودلائله ورموزه، وذلك عبر ملاحظة الوثائق وتحديد مصدرها ثم تحليلها ونقدها، وأخيرًا التركيب الذي يسمح بالخروج بخلاصات واستنتاجات عامة.

وانطلاقًا من هذه الرؤية، اعتمدنا في هذا البحث على المنهج الاستقرائي المبني على البحث في أصول وبدايات الحدث وامتداداته وتأثيراته، خاصة وأن الوثيقة في حد ذاتها لا وجود لها بشكل سابق عن التدخل الفضولي للمؤرخ، مما يعني أن الوثيقة ليست معطى مجرد، وإنما هي واقع مصنوع في ذهن الباحث. ومن أجل مقاربة هذا الموضوع المتشابك لا يمكن أن نجند علمًا واحدًا للقيام بدراسته، وإنما تسير وراء هذه الدراسة علوم شتى كالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع واللسانيات والطوبونيميا والجغرافيا، وقد يساهم ذلك طبعًا في تكوين معرفة تاريخية من شأنها تجاوز قراءات سطحية للإخباريين المغاربة، وكذا الكتابات الاستعمارية التي طبعتها هي الأخرى أحكام غير سليمة ولا دقيقة ولا منطقية. حاولنا تناول الموضوع بتجرد قدر الإمكان وكان الهدف الأساس هو جمع الوثائق ومحاولة البحث داخلها عن كل ما من شأنه أن يفيد الباحث لهذه الحقبة.

بنية البحث

بناءً على ما وفرته لنا المظان التاريخية، قسمنا البحث إلى أربعة أبواب، سعيًا منا إلى تفكيك الفكرة المفتاح التي يتضمنها عنوان الأطروحة، وهي محاولة رصد ومتابعة التطور الذي عرفته منطقة زيان خلال فترة الحماية.

تناول **الباب الأول** الإطار الطبيعي والبشري لمنطقة زيان، وذلك لفهم جدلية الجبل والسهل باعتبارهما من المسائل المهمة في المخططات العسكرية الفرنسية. قسم الباب الأول إلى فصلين، تعرض الفصل الأول إلى التعريف بالإقليم من حيث ظروفه الطبيعية وموقعه الاستراتيجي، على اعتبار أن البحث التاريخي ينطلق من الميدان. وعالجنا في الفصل الثاني مسألة الوضع البشري، حيث تقاسمت إقليم زيان ثمانية قبائل كبرى، تأرجحت العلاقات فيما بينها عموديًا أو أفقيًا بين التعايش والصراع.

خصصنا **الباب الثاني** للحياة الاجتماعية، محاولة منا تفكيك الوضع القبلي بمنطقة زيان على مستويات عدة. تناول الفصل الأول الرؤية الكولونيالية للقبيلة، وقدمت هذه الرؤى القبيلة أحيانا كوحدة سياسية، وأحيانا أخرى كوحدة اقتصادية. وهناك من جعل القبيلة قادرة على تحقيق استقلاليتها، بل وهناك من نزع عنها صفة المؤسسة السياسية الواضحة، كما يهدف هذا الفصل أيضا إلى تكوين صورة انتظام المجموعات في هذا المجال الزياني. كل هذا من أجل محاولة فهم ذلك التشكيل القبلي الذي تميزت به هذه القبائل، والذي استطاعت من خلاله إقامة مجتمع له خصوصياته الاقتصادية والاجتماعية، بل والعسكرية.

وتم الحديث أيضًا عن الجوانب الاجتماعية والعادات والتقاليد التي تهم المنطقة مثل (التويزة، الضيافة، الوزيعة...) والتنظيم الإداري حينها، حيث وضحت التحولات التي طرأت في هذا الشأن والتي تخص السكن والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية ومسألة التكافل والتضامن. حيث بدأت تتحول مساكن هذه القبائل من الخيام إلى منازل التراب ومن الدوار إلى المراكز القروية، ومن عادات التويزة التضامنية إلى التويزة الإجبارية التي اتخذتها الحماية الفرنسية كنظام للسخرة، إما لخدمة المعمرين أو العمل في أشغال البنيات التحتية. رصد الفصل إذن بعض مظاهر التحول في البنيات الاجتماعية للمجتمع الزياني، وما أصاب هذه البنى من تصدع نتيجة إلحاق المغرب بنظام رأسمالي مستورد، ومفروض على البنيات الأصيلة العميقة والمتجذرة في القبيلة المغربية عامة.

عالجنا في هذا الباب أيضًا العلاقة بين العرف والشرع، وبيان آليات اشتغالهما. وقد حاولنا تسليط الضوء على بعض الأعراف، وذلك باستقراء بعض النصوص المكتوبة باللغتين العربية والفرنسية، واستعمال منهج المقارنة كتقنية معرفية قصد الوقوف على التقاطعات الممكنة بين العرف والشرع وتعارضهما. خصصنا الفصل الرابع للجانب الثقافي بالمنطقة، هذا الجانب الذي يجد قيمته في قدرة هذه المقاربة الثقافية في كشف جانب من المرتكزات الرمزية غير المادية للإنسان الزياني كأحد مداخل فهم طبيعة تفكيره أو ما يصطلح عليه الخطاب الفلاحي.

تناولت الأطروحة أيضًا أسس الاستراتيجية الفرنسية لاحتلال منطقة زيان والتي انبنت على أسس القوة العسكرية والحصار الاقتصادي واستقطاب النخب القيادية في هذه القبائل، وصولا إلى تحليل الرد الفعلي المحلي على مستوى المقاومة، فاستعرضت مختلف المعارك التي شارك فيها مقاومو زيان منذ ١٩٠٨ بالشاوية ثم المعارك التي خاضوها بالمنطقة ومن أشهرها معركة لهري، مستثمرين التراث الشفاهي الغزير.

تم الحديث أيضا في **الباب الثالث**، عن الاستراتيجية الفرنسية في تدبير المجال وتطويع القبائل حيث تم تقييم حصيلة الغزو الاستعماري بمنطقة زيان من خلال مقاربتنا لوضعية المجال الرعوي والضريبي والأسواق والتحولات التي شهدها هذا المجال. وفي إطار التحكم والاستغلال دائما للمجال الزياني. أنشأت الادارة الاستعمارية مراكز تابعة لمصلحة المياه والغابات، من أجل مراقبة المجال الغابوي، الذي تعرض لاستنزاف مكثف خلال فترة الحرب العالمية الثانية.

تحدثنا كذلك عن الملكية العقارية، وتبين لنا أن الأرض لها مكانة خاصة في وجدان القبائل المغربية عموما. وشكلت بالنسبة لقبائل زيان هدفًا ساميًا، لأنها المكان الذي تمتد فيه القبيلة وتعيد إنتاج وجودها وما يرتبط بها من قيم ومبادئ ورموز. وكان استغلال الأرض ضمن مجال زيان يتم تبعا لنظام تفرضه الجماعة ويقوم على العرف. وباعتبار الأرض ذات قيمة كبيرة بالنسبة لهذه القبائل، شكلت الأداة الاقتصادية الفعالة لممارسة الضغط على الأهالي، إذ تبنى المستعمر استراتيجية عقارية للاستفادة منها، أساسها إصدار مجموعة من التشريعات للاستحواذ على الأرض، ومنها ظهائر تفويت الملكية العقارية والتسجيل وممارسة الوصاية على الأراضي الجماعية، والقاسم المشترك بين هذه الظهائر هو طابع الزجر والسلب الذي يتوخى إبعاد الأهالي عن أراضيهم الخصبة وحصرهم في المناطق القاحلة. ونتيجة هذا الوضع الذي أسفرت عنه هذه التشريعات أصبح المستعمر الفرنسي هو الذي يشرف على إدارة الأراضي الجماعية ويمكنه أن يتملكها أو يكتريها.

خصصنا **الباب الأخير** من البحث للمساهمة في الحرب العالمية الثانية. فقد جعل المغرب كما هو معلوم، إمكانياته البشرية والاقتصادية في خدمة المجهود الحربي الفرنسي. واحتلت مسألة التجنيد مكانة هامة في اهتمامات السكان مع بداية الحرب، واتخذ تصريح السلطان محمد بن يوسف بموقف المغرب واختياراته في الحرب بمثابة دعوة للانخراط في الجندية، وبانطلاق حملة التجنيد، تقاطر المتطوعون الزيانيون على مراكز التجنيد.

ولم يقتصر الأمر على اليد العاملة، بل تعرض الفلاحون الزيانيون منذ ١٩٣٩م لضغوطات شتى فقدوا بموجبها احتياطاتهم من الحبوب سواء المخصصة للبذور أو الاستهلاك أو للتسويق بغية مواجهة الغلاء والخصاص، كما لم تقتصر هذه المصادرات على الحبوب، بل شملت جل الإنتاج الفلاحي من جلود، وصوف ومواشي وخشب. فقد قامت السلطات المحلية من قياد وشيوخ ومقدمين بأوامر من السلطات الفرنسية وبمباركة منها بهذه المصادرات. وهكذا عانى الزيانيون خلال هذه الفترة من إكراهات الاقتصاد الحربي.

خاتمة

توصل البحث إلى جملة من الخلاصات، يمكن تحديدها كما يلي:

- صعوبة تكوين نظرة متكاملة عن زيان في مختلف مراحلها التاريخية، ويرتبط ذلك بشح المادة المصدرية التي تتضمن معلومات حول الجذور التاريخية لزيان. ورغم دراستنا التي حاولت اقتحام هذا المجال، فلا تزال هناك حلقات مفقودة تحتاج مزيدا الفحص والتنقيب.
- تتسم منطقة زيان بموقع استراتيجي متميز جعلها ضمن أولويات المشروع الاستعماري الفرنسي.
- يزخر المجتمع الزياني بالتراث المادي واللامادي وبقيم إنسانية وروحية تنظم علاقاته الاقتصادية والاجتماعية.
- خضعت العلاقة بين المستعمر والأهالي، لرؤية عسكرية قوامها سياسة القوة، وقد نجحت الاستراتيجية الفرنسية في التحكم في المجال على صعيد الخطة (الحصار السياسي والعسكري)، والتكتيك (الفرق المتحركة، المراكز العسكرية، سلاح المدفعية والطيران...). وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلت المقاومة صامدة لمدة طويلة، مما يفيد عجز فرنسا على النيل من شخصيات المقاومين وإضعاف هممهم، على الرغم من نجاحها ماديا.
- يقوم التدبير الفرنسي للشأن الأهلي على توظيفه للسياسة الأهلية كاختيار فكري لإدارة المواجهة مع الأهالي في المنطقة.
- اقترن التدبير الفرنسي في جانبه الاقتصادي بالتحكم في رأسمال المجتمع القبلي (الأرض) كمجال للرعي من جهة، وكعنصر يصوغ الوجود الأهلي للسكان من جهة أخرى. خاصة وأن فرنسا أدركت عمق الترابط بين الإنسان الزياني وأرضه، فحاولت العمل على خلخلة الموازين القائمة بينهما، بدءا بتبني استراتيجية عقارية هدفها الاستحواذ على الأرض، وتحديد رخص الرعي، وتقنين الدخول إلى الغابات عبر إجراءات تشريعية مجحفة في حق الأهالي.
- تمحور التدبير الفرنسي للشأن الأهلي في جانبه العسكري على احتواء ظرفية الحرب العالمية الثانية، وتشجيع أبناء المنطقة على المساهمة في المجهود الحربي، ما أسهم في ظهور مشاكل عدة، أثرت على وضعية الساكنة النشيطة ببلاد زيان. مما ساهم في انتشار مجاعة عرفت لدى الأوساط المحلية بـ "عام بوهيوف".
- رصد التحولات السريعة التي عرفتها المنطقة خلال فترة الحماية الفرنسية على مستويات عدة (مجالية، اجتماعية، اقتصادية، سياسية...).
- يطرح تاريخ زيان مجموعة من الإشكالات التي تواجه الباحثين والمهتمين بتاريخ المنطقة، وذلك نظرًا لغموضها وقلة المصادر حولها، بالإضافة إلى انعدام الأبحاث الأركيولوجية، مما يجعل الباحث يخلص إلى استنتاجات وتأويلات مفتوحة على كل الاحتمالات.

التوصيات:

- تغيير الرؤية لمحتويات وسجلات الماضي التي تختزن عددًا من الوقائع والأحداث التاريخية حول منطقة زيان.
- التسلح بعد منهجية تسمح للباحث بكتابة التاريخ الزياني من الأسفل
- خلق ذهنية معاصرة عند الباحثين المغاربة وذلك بتوسيع وتعميم الدراسات المنهجية والابستمولوجية، وذلك لدراسة تاريخ منطقة زيان من زاوية نقدية.
- إعادة بناء التاريخ عبر البحث في مظان أخرى يمكن أن تمد الباحث في منطقة زيان بمعطيات وتدقيقات مفيدة لا توجد في المصادر التقليدية، وخاصة الرواية الشفوية، فقد تبين لنا أثناء تحليل بعض المتون الشعرية جماليا وفنيا أنها تحتوي قضايا تاريخية خاصة عندما يفتخر الشاعر بقبيلته ويعرج على مقاومتها للاستعمار. وقد لخص روبير مونطاني أهمية الرواية الشفوية بقوله "إن الاستخبار في عين المكان هو القمين بأن يزودنا بما تحرمنا منه النصوص المكتوبة".
- التركيز على استيعاب منطق اللسانيات، باعتبارها الملجأ الوحيد للدارس ليعطي تفسيرًا مقنعًا ومنطقيًا لكثير من التسميات التي أطلقت على أماكن بعينها، وتستمد معناها من دلالتها في المتداول من لغة ساكني المنطقة، بمعنى أن الأسماء لا تنتج من فراغ وإنما تنطلق من بنية ذهنية تختزل وتلخص ثقافة وطريقة تفكير مجتمع معين، ولذلك تظل اللسانيات والطوبونيميا شيئين ضروريين بالنسبة للجغرافي والمؤرخ.
- إعادة الاعتبار لتاريخ الهامش، باعتباره العمود الفقري في تشكيل الشخصية المغربية، كما قام بدور أساسي في الحفاظ على الثقافات المحلية والذاكرة الجماعية.

- تعامل خاص وحذر كبير مع تاريخ زيان، فهو يقبل عدة قراءات وتأويلات على غرار تاريخ البوادي المغربية الذي لا مفر منه من كتابته من الداخل أو الأسفل بالاعتماد على الشواهد والمصادر البديلة.
- فتح آفاق جديدة للبحث في تاريخ زيان، بمنهج تتقاطع فيه مختلف المقاربات في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية.
- استثمار الموروث الشعري كشواهد يمكن أن تملأ فراغات وبياضات الوثيقة المكتوبة في التأريخ للمجال الزياني.
- الاهتمام بتاريخ المقاومة الزيانية، التي قامت على أكتاف المستضعفين والبسطاء الذين لم يفوزوا إلا ببعض السطور، هي في معظمها قدح وتشويه، وذلك قبل أن تندثر معالم هذا التاريخ وتنمحي آثاره، وتتدخل الأسطورة ويمتزج فيها الواقع بالخيال، فيصعب إعادة المعارك إلى المجال التاريخي.

تسعى هذه التوصيات إلى كتابة تاريخ زيان برؤية جديدة، وتجاوز الأحداث التاريخية التي أصبحت أهميتها محدودة الفائدة بالنسبة لكثير من القضايا التاريخية بمنطقة زيان.